مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 10- العدد 4 (ديسمبر) 1442هـ/2020م
ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

دور الاستعمار الفرنسي في تفشي الأمراض والأوبئة بالجزائر خلال القرن 19م

The Role of French Colonialism in the Spread of Diseases and Epidemics in Algeria During the Nineteenth Century

✍اسم ولقب المؤلف المرسل: سيدي محمد رامي- Sidi Mohamed Rami صص357-370
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر ب في التاريخ الحديث والمعاصر- جامعة عباس لغرور- خنشلة (الجزائر).
البريد الإلكتروني: ramimed2013@gmail.com

تاريخ استقبال المقال:2020/06/07 تاريخ المراجعة:2020/08/30 تاريخ القبول:2020/09/28

الملخص باللغة العربية: أكدت جائحة كورونا (Covid-19) أن الأوبئة لها مضاعفات تتجاوز التأثيرات الصحية المعروفة لها، وعبر التاريخ كان لها تأثير على سياسة الدول وطبيعة مجتمعاتها، والعلاقات بينها وعلى اقتصادياتها، وذلك حسب المكان والزمان، وتجلى تأثيرها كذلك خلال الحروب والنزاعات، حيث لعبت دورا في تغيير موازين القوى لصالح طرف أو أطراف على الأخرى، وكغيرها من مناطق العالم شهدت الجزائر العديد من فترات الأوبئة عبر تاريخها، لعل أهمها تلك التي صاحبت الوجود الاستعماري الفرنسي خاصة خلال القرن التاسع عشر.

وتبين هذه الورقة البحثية مختلف الأمراض والأوبئة التي ظهرت في الجزائر في الفترة التي كان يحاول فيها الاحتلال الفرنسي السيطرة على كل مناطق الجزائر، وكيف أثرت بعض الفترات الوبائية بالجزائر في الحركة الاستعمارية سواء بالإيجاب أو بالسلب، حيث كانت الأمراض ومحاولة تطبيبها من مبررات الوجود الاستعماري حسب بعض المؤرخين، كما أن الأوبئة أعاقت أحيانا مشاريع الاحتلال خاصة المشروع الاستيطاني.

وتُظهر هذه الورقة البحثية تسبب الاستعمار في نقل الأوبئة من أوروبا إلى الجزائر ونشرها، واستغلالها لتحقيق سياسته الاستعمارية المبنية على الإبادة، وإفناء الشعب الجزائري، أن هناك إمكانية تعمد الاستعمار الفرنسي في نقل الأوبئة ونشرها في الجزائر.

كما نحاول أن نبين من خلالها أمثلة من الأوبئة التي ساهمت مع التوسع الاستعماري في إبادة عدد كبير من أفراد الشعب الجزائري، وانتشار البؤس والفقر بينهم، كما أنها أثرت

EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 ردمد
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

بشكل كبير على حركة المقاومة العسكرية التي واكبت الحركة الاستعمارية منذ بدايتها سنة 1830م.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة؛ الأمراض؛ الكوليرا؛ الطب؛ الجزائر؛ الاحتلال الفرنسي؛ المقاومة الشعبية؛ المشروع الاستيطاني؛ القرن 19م.

Abstract: *The Corona pandemic (Covid-19) confirmed that epidemics have repercussions that exceed health effects known to them, and throughout history have had an impact on the policy of countries and the nature of their societies and the relations between them and their economies, according to place and time, and their impact was also evident during wars and conflicts, where it played a role in changing the scales Powers in favor of one party or parties over the other, and like other regions of the world, Algeria has witnessed many epidemics throughout its history, perhaps the most important of which was the accompanying French colonial presence, especially during the nineteenth century.*

This research paper shows the various diseases and epidemics that appeared in Algeria during the period when the French occupation was trying to control the rest of the regions of Algeria, and how some epidemic periods in Algeria affected the colonial movement, whether in the affirmative or the negative, where the diseases and the attempt to treat them were justifications for the colonial presence according to some Historians, and epidemics have sometimes hindered occupation projects, especially the settlement enterprise.

This research paper shows, through colonialism, the transmission of epidemics from Europe to Algeria, its publication, and its exploitation to achieve its colonial policy based on extermination and annihilation of the Algerian people, that there is a possibility of deliberate French colonialism in transmitting epidemics and spreading them in Algeria.

We will also try to show through several examples that epidemics contributed with the colonial expansion to the extermination of a large number of the Algerian people, and the spread of misery and poverty among them, and it also greatly affected the military resistance movement that has accompanied the colonial movement since its inception in 1830.

Keywords: Epidemics ; diseases ; cholera ; medicine ; Algeria ; French occupation ; popular resistance; settlement project ; 19th century.

المقدمة: في ظل جائحة فيروس كورونا المستجد (Covid-19) وانتشاره في العالم مع آثاره الصحية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ظهرت آراء تشكك في وجود مؤامرة أو حرب بيولوجية، أو على الأقل كارثة صحية يتم استغلالها سياسيا واقتصاديا من بعض الأطراف في إطار الصراعات الدولية والإقليمية، الجدال حول هذا الموضوع جعلنا نبحث في تاريخ

مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 10- العدد 4 (ديسمبر) 1442هـ/2020م
ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

الأوبئة، وعلاقتها بالنزاعات والصراعات والحروب، وحاولنا أن نربط هذا الجدل بفترات الأوبئة والأمراض التي شهدتها الجزائر في الفترة التي كان الاحتلال الفرنسي فيها يحاول السيطرة على كل مناطقها خلال القرن التاسع عشر، من خلال دراسة دور الاحتلال الفرنسي في نشر وتفشي الأمراض والأوبئة في الجزائر.

إشكالية الورقة البحثية تتمحور حول دور الإدارة الاستعمارية، وإمكانية تعمدها في نقل الأمراض والأوبئة إلى الجزائر، ونشرها لخدمة مصالحها بشكل أو بآخر، ولمعالجة الإشكالية سنحاول الإجابة على عدة تساؤلات فرعية، أهما: هل كان الطب الاستعماري حقا طبا عقلانيا وإنسانيا؟ وهل يعد حقا إحدى فوائد الإمبريالية التي لا يمكن إنكارها؟ وهل كانت الأمراض والأوبئة تصيب وتؤثر على الجنود الفرنسيين والمستوطنين والجزائريين على حد السواء وفي كل المراحل؟ وكيف كانت تنتقل الأوبئة من فرنسا ودول أوروبية أخرى إلى الجزائر؟ وما مدى تأثيرها على النمو الديمغرافي لسكان الجزائر، وعلى حركة الاحتلال والمقاومة؟

سنحاول وبالاعتماد على عدة مصادر أغلبها أجنبية لمؤرخين فرنسيين الإجابة على هذه التساؤلات، ومعالجة إشكالية الورقة البحثية.

1- الطب بين خدمة مصالح الاستعمار والمهام الإنسانية: هناك من يعتقد أن الاستعمار الأوروبي على الرغم من أنه إمبريالي استغلالي، إلا أنّ له عدة إنجازات حضارية في المستعمرات، منها الإنجازات والدراسات الطبية، وقد وُصف بالطب العقلاني والإنساني[(1)]، لكن أكثر المؤرخين وبخاصة الغربيين اعتبروا أن هذا النوع من الطب كان يعد بالنسبة للحكم الإمبريالي إحدى الدعاوى التي تبرر شرعيته، وأقل هذه الدعاوى إثارة للخلاف، وكان الطبيب هيوبرت ليوتي (Hubert Lyautey) أحد الزعماء المؤيدين لفكرة أن الطب العسكري أداة للمساعدة في إرساء الحكم الفرنسي في إفريقيا، وقد ذهب بعيدا إلى حد الزعم بأن "العذر الوحيد للاستعمار هو الطب"[(2)].

أدركت الإدارة الاستعمارية منذ أربعينيات القرن 19م أن استعمال الطب ضرورة لاستمالة جزء من الجزائريين من أجل إنجاح مشروعها الاستيطاني، واستطاعت أن تقنع وتكوّن أطباء يتبنون هذا النهج، حيث تشير الباحثة إيفون توران (Yvonne Touraine) أنه واعتبارا من سنة 1849 وربما في 1847، ومن أجل الدعاية للتلقيح ضد مرض الجدري في الجزائر، كتب الدكتور أنيلي فانت (Agnely vint) تقريرا تضمن ما يلي: "... التأثير السياسي

مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 10- العدد 4 (ديسمبر) 1442هـ/2020م
EISSN 2600-6324 ردمد ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

للطب، التأثير الأخلاقي للطبيب كأداة للغزو والحضارة،... الغزو العقلي، حضارة الشعب العربي، هي بكل وضوح الهدف من المهمة السماوية التي أسندت إلى فرنسا، لكن هل يمكن لتأثير الطبيب أن يساهم في تحقيقها؟ هل هناك فرصة لفتح هذه الوظيفة الجديدة ذات المنفعة العامة أمام الطب؟"(3).

من هذا المنطلق عمدت الإدارة الاستعمارية إلى تكوين أطباء وممرضات جزائريات إضافة إلى الطواقم الطبية الفرنسية والأوروبية، وكلفتهم بالتنسيق مع المكاتب العربية من أجل التنقل إلى القبائل، وتقديم الخدمات الطبية وفي مقدمتها التلقيح ضد الأمراض، بخاصة في فترات انتشار الأوبئة، ومن أهم الحملات الصحية تلك المنظمة في 12 أفريل 1845، وفي 21 جانفي 1853، كما صدر قرار في 3 جويلية سنة 1849، تم تعديله في 23 ديسمبر 1874 يقضي بأن تكون المستشفيات المدنية مفتوحة لكل المواطنين دون التفريق العرقي والديني(4)؛ وبغضّ النظر عن التقارب من عدمه بين المصالح الطبية والمصالح السياسية الفرنسية في الجزائر؛ فقد جاءت الآراء الطبية في هذا الشأن تتضمن توجه السياسة الاستعمارية بشكل غير مباشر، حيث جاء في أحد التقارير الطبية سنة 1851: "أن إنشاء مصلحة طبية في المكاتب العربية له هدفين أساسيين، ذلك المتعلق بمساعدة الأهالي المرضى، وكذلك نشر أفعال الخير في أوساطهم التي من شأنها أن تجلبهم إلينا، من باب الاعتراف، أو على الأقل من باب الحاجة..."(5).

وكان غالبية السكان خاصة في المرحلة الأولى من الاحتلال يقاومون التدابير الوقائية والصحية، أو على الأقل يهابونها ولا يثقون فيها؛ لأنها تمثل بصورة أو بأخرى الوجود الاستعماري، وفي ذلك يقول الدكتور بارتراند بعد قيامه بجولات في أنحاء دائرة العاصمة سنة 1849: "لقد واجهنا معارضة شديدة من قبل الأهالي الذين تحدثنا إليهم لمحاولة الدعاية لصالح إجراء الوقاية... من المستحسن تركهم يصلون لإدراكها بمحض إرادتهم"(6)؛ ولم تغير فترات الأوبئة من موقف أغلب الجزائريين من مسألة قبول الطب الاستعماري؛ فمثلا سجل وباء الجدري انتشارا خطيرا في خريف سنة 1851 بدائرة بونة بنسبة وفيات عالية، وكان الأمر مشابها في عين تموشنت سنة 1862، وقتل نفس الوباء 150 طفلا من بين 400 مصاب في تلمسان سنة 1885، وفي كل هذه المناطق وغيرها ظل الرفض تاما(7).

لكن سرعان ما سُجل تباين في هذه المواقف؛ حيث أظهر سكان بعض المناطق قبولا تدريجيا للمعالجات الفردية، والتلقيح الجماعي في ظل قدرات الأطباء الفرنسيين على

مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 10- العدد 4 (ديسمبر) 1442هـ/2020م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 ردمد
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

الشفاء، وفي ظل انتشار الأمراض المستعصية، مظهرين انتقائية وواقعية وحذر في التعامل مع ما يقدّمه المستعمر[8]؛ حيث وبعد سنة 1862 مع ظهور قبول متباين لعملية التلقيح بمنطقة سيدي بلعباس جاء في تقرير لرئيس مكتب العيادة العسكرية بها ما يلي: "نحن نميل إلى الاعتقاد أن الأهالي بدأوا يُعجبون بفضائل التلقيح"[9].

هذه الاستجابة الجزئية جعلت بعض المؤرخين الفرنسيين يبالغون في إقبال الجزائريين على الطب الاستعماري، ومنهم المؤرخة سيلين فالي (Celine Fallet) التي قالت: "... عندما يصل أحد منهم (يقصد الأطباء الفرنسيين) إلى إحدى القبائل، يكون مرحباً به، الكل يأتي من أجل الفحص، من يتمتعون بصحة جيدة أو الآخرين، يعتقدون أنهم بالتداوي حسب تعليمات الحكيم الرومي يصبحون محميين من كل الأمراض في المستقبل"[10].

لكن هذا لا يمنعنا من القول أن أغلب الدراسات الطبية- إن لم نقل كلها- التي صاحبت أو تلت عملية الاحتلال الفرنسي للجزائر لم تكن تهدف إلى خدمة إنسانية للشعب الجزائري، وذلك لعدة أسباب، حيث كان لزاما على الأطباء العسكريين، وحتى المدنيين اتباع تعليمات القيادة العسكرية الاستعمارية من أجل الحفاظ على مهنهم وسمعتهم[11]؛ كما أن جل الدراسات في هذه الفترة كانت في صالح الاستعمار، وخدمةً له ولمخططاته التوسعية والاستيطانية، حيث بدأت بعض الدراسات تركز على طبيعة الجو والمحيط، وما مدى تأقلم عناصر الجيش والمستوطنين للعيش فيه، وذلك بدراسة صحية للسكان الأصليين أنفسهم من خلال أكلهم ولباسهم وعاداتهم الصحية، والأمراض المنتشرة بينهم، ومقارنتها بالأوروبيين.

أي أن الجزائريين طُبق عليهم الطب الاستعماري للتقرب منهم، واستمالتهم كوسيلة للتمدين والتمسيح، ولتلطيف الظروف كنوع من الإدماج والسيطرة من جهة، ومن أجل استعمالهم كفئران تجارب من جهة أخرى، لأنه ورغم أن الطب كان يروج له أنه للجميع، إلا أنه لم يكن على حد السواء خاصة في فترات انتشار الأوبئة، والتأثير الكارثي للأوبئة على الجزائريين، وما سيأتي ذكره لاحقا خير دليل على ذلك.

2- تناقص تأثير الأمراض على المستوطنين وأفراد الجيش الفرنسي: شهد المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر مع بداية الاحتلال تهديدا حقيقيا، من خلال بعض العقبات التي كاد يفشل بسببها، وبالتالي ترهن الوجود الفرنسي في الجزائر بأكمله، وكان في مقدمة هذه العقبات المشكل الأمني المتعلق بشدة وتواصل المقاومات الشعبية المسلحة، لكن هناك مشكل آخر يصعب التعامل معه، وهو مشكل متعلق بالتأقلم[12] مع الوسط (المناخ والأرض)

مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 10- العدد 4 (ديسمبر) 1442هـ/2020م
EISSN 2600-6324 ردمد ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

في الجزائر، مما تسبب للمستوطنين بالعديد من الأمراض والأوبئة القاتلة؛ وأصبحت إشكالية التأقلم قضية حساسة، حيث طُرحت في مجلس الحكومة، وفي البرلمان بغرفتيه، وناقشتها الصحافة السياسية والعلمية(13).

وأصبح المستوطنون إضافة إلى أوبئة معدية أخرى تعودوا عليها في أوروبا كالملاريا والكوليرا، عرضة لأمراض الكبد ومرض الزحار، والحمى المتقطعة الخطيرة والحمى الصفراء، وهي أمراض تصيب جسم الإنسان الذي يحاول التأقلم مع الوسط الجديد(14).

وفي نفس السياق كشف الطبيب جون بيريي (Périer) أن الأوروبيين وعلى عكس الجزائريين يتأثرون بجو وحرارة الجزائر ما يسبب لهم حمى مصحوبة بإسهال حاد(15)، وارتفعت بذلك نسبة الوفيات في صفوف المستوطنين وأفراد الجيش جراء الأمراض الناجمة عن سوء التأقلم، وفي ذلك يقول الطبيب بودان (Jean-Christian Boudin)- وهو طبيب تابع للقيادة بالناحية العسكرية الأولى-: "حالات الموت عند العسكريين في المعارك أقل منها في المستشفيات التي تمثل أراضي المعارك الحقيقية... إنها أمراض الزحار المعوي، والتهاب الكبد، والحمى والملاريا ما يجب محاربته"(16).

والأكيد أن حديثي الولادة كانوا الأكثر تأثرا بهذا التغيير ما يجعلهم عرضة لأمراض عادة ما تكون مميتة(17)؛ وفي ذلك يقول الدكتور فيتال (Vital): "الأطفال المولودون في الجزائر من أبوين أوروبيين، هم للأسف معرضون للمرض المميت..."(18).

وبالنظر للإحصائيات الرسمية، والتي جاء أغلبها على ثلاث مراحل بالنسبة للفترة المدروسة: المرحلة الأولى من سنة 1835 إلى 1855 حيث كانت نسبة الولادات 40 % ونسبة الوفيات 56% من عدد السكان الأوروبيين المدنيين في الجزائر، وفي المرحلة الثانية من سنة 1855 إلى 1862، كانت نسبة الولادات 32%، ونسبة الوفيات 38%، أي أن نسبة الولادات في المرحلتين الأولتين دائما أقل من نسبة الوفيات، أي أن الزيادة الطبيعية سلبية(19).

حاولت الإدارة الاستعمارية؛ وبالتنسيق مع المصالح الطبية بذلَ جهودٍ كبيرة لإيجاد حلول لهذه المعضلات الصحية التي أصبحت تهدد الوجود الفرنسي بأكمله بالجزائر؛ فتم اقتراح عدة حلول لتجاوز إشكالية التأقلم؛ منها الاهتمام بالنظافة أو الانتقاء الجيد للمستوطنين، واختيار الوقت المناسب لترحيلهم إلى الجزائر، وكذلك اتباع عادات صحية مشابهة لتلك الخاصة بالجزائريين، أو اختلاط الأجناس بتزاوج الفرنسيين مع الجزائريين أو مع أجناس تعيش في وسط مشابه لوسط الجزائر كالإسبان والإيطاليين والمالطيين

مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 10- العدد 4 (ديسمبر) 1442هـ/2020م
ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

والكورسيكيين، والذين أظهروا من خلال نسبة الولادات المرتفعة عندهم سرعة أكبر في التأقلم مقارنة مع الفرنسيين[20].

لكن بعد مرور نحو ثلاثة عقود، ودون تأكيد الأسباب الحقيقة والأكثر نجاعة، حقق المستوطنون تأقلما أكثر تشجيعا بالنسبة للمشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، حيث أظهرت الإحصائيات ما بين 1862 إلى 1871 أن نسبة الولادات كانت 39%، ونسبة الوفيات 30% تقريبا، وانطلاقا من هذه المرحلة أصبحت نسبة الولادات أكبر من نسبة الوفيات، وبالتالي الزيادة الطبيعية إيجابية[21].

أما بالنسبة لتأثير الأوبئة غير المتعلقة بإشكالية التأقلم كالكوليرا والملاريا والتيفوس؛ فقد تناقص مع الوقت؛ حيث أن توالي الأمراض وفترات الأوبئة وتجددها كانت له آثار إيجابية من حيث التصدي له؛ فبالنسبة للعسكريين أصبحت العناصر والفرق التي شهدت فترات الوباء أكثر من مرة هي الأكثر مقاومة له من العناصر الجديدة[22].

أما من الناحية الطبية؛ فقد اكتسبت العناصر الصحية من أطباء وممرضين خبرة في مواجهة الأوبئة، وفي مقدمتها الكوليرا، ولهذا فإن تأثيرها تناقص مع كل موجة كانت تشهدها الجزائر، بخاصة بعد اتخاذ إجراءات النظافة والحماية داخل المستشفيات وخارجها[23].

فالملاحظ مثلا أن تأثير وباء الكوليرا سنة 1867 اختلف بين صفوف الجيش الفرنسي والمعمرين من جهة والجزائريين من جهة أخرى، وذلك بالمقارنة مع المرات السابقة التي كان يجتاح فيها الوباء مناطق من الجزائر، حيث كانت هذه المرة أكثر فتكا بالجزائريين على عكس المستوطنين الأوروبيين الذين لم يتضرروا بشكل كبير[24]، خاصة أن السلطات الاستعمارية عمدت إلى جمع الجزائريين في محتشدات لعزلهم عن الأوروبيين خوفا من انتشار المرض بينهم[25].

إن استعمال الطب لخدمة مصالح الاستعمار بالدرجة الأولى أدى إلى تناقص تأثير الأمراض والأوبئة بشكل كبير عند أفراد الجيش الفرنسي والمعمرين مقارنة بتأثيره على الجزائريين، وهذا ينفي أو على الأقل يشكك في دعوى أن الأمراض والأوبئة في الجزائر خلال القرن 19م كانت تصيب الجزائريين، كما كانت تصيب الجنود الفرنسيين والمستوطنين الأوروبيين على حد سواء، وأن الطب والتمريض كان موجّها للجميع دون استثناءات، وهذا كله يعزز فرضية أن الإدارة الاستعمارية تعمدت نشر الأمراض والأوبئة في الجزائر لخدمة

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

مصالحها، أو على الأقل استغلتها لخدمة مصالحها بشكل أو بآخر، وهذا ما سنحاول برهنته من خلال ما يلي:

3- نقل الأوبئة من أوروبا إلى الجزائر: أكيد أن الاستعمار الفرنسي لم يأت إلى الجزائر لتحريرها من ظلم الأتراك، ولا من أجل نشر الحضارة الغربية كما كان يدعي دائما؛ فأهدافه واضحة، لكنه كان يحاول تغليط الرأي العام الفرنسي والعالمي للتغطية عن ممارساته، حيث ارتكب المجازر، وانتهك الأعراض وأباح الممتلكات، وذلك بشهادة حتى بعض جنرالاته ومؤرخيه من خلال كتاباتهم، كما شهد غير الفرنسيين من الكتاب والرحالة بذلك بكل موضوعية، حيث تبين للرحالة "إنجلز" أن الفرنسيين لم يأتوا للجزائر للتمدين، وإنما للتخريب والتسلط، ووصف الفرنسيين بالغزاة الذين قاموا بحرب بربرية، وحكم عليهم بالفشل الذريع[26].

ومن بين أوجه الخراب والدمار التي جلبها الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر الأمراض والأوبئة، وسنحاول أن نبين أن معظم الأوبئة التي اجتاحت عدة مناطق من الجزائر خلال القرن 19م، نُقلت إلى الجزائر من أوروبا؛ وتحديدا من فرنسا، وأغلبها عن طريق الفرق العسكرية الفرنسية، التي كانت تنشره في العديد من المناطق بالجزائر من خلال تنقلاتها ونظام خدمتها، والدعم العسكري في المناطق الساخنة أين تكون هناك مقاومة أو ثورة، أو أثناء توسع قوات الاحتلال في المناطق الداخلية والجنوبية.

في 26 سبتمبر سنة 1834 ظهر وباء الكوليرا لأول مرة في الجزائر[27]، في حين تشير مصادر أخرى أنه وصلها بين سنتي 1832 و1833، حيث نقله مجموعة من المهاجرين من إسبانيا، وبالتحديد من قرطاجنة إلى المرسى الكبير بوهران، ومات بسببه 500 عسكري و467 مدني[28]، وسرعان ما انتشر المرض في المدن المجاورة؛ وبخاصة معسكر ومستغانم، حيث قضى في ظرف وجيز على حوالي 1457 شخصا، وفي جويلية سنة 1835 ظهر الوباء من جديد في الجزائر، وبالضبط في مدينة الجزائر، والتي انتقل إليها من فرنسا هذه المرة عبر ميناء طولون، وتسبب المرض في وفاة حولي 1220 مدني في الجزائر من المستوطنين والجزائريين[29].

وفي سنة 1837 انتقل وباء الكوليرا مرة أخرى من ميناء مرسيليا بفرنسا، ووصل إلى عنابة بالجزائر، حيث كانت هناك إصابات ضمن الجنود الفرنسيين المشكلين للجيش الفرنسي الموجه للحملة العسكرية الثانية على قسنطينة، ورغم انتشار المرض بشكل أكبر

بين العسكريين إلا أنه حصد الكثير من أرواح المدنيين، حيث قدر عدد الوفيات بحوالي 14 ألفا[30].

وخلال حصار واحة الزعاطشة سنة 1849، استنجدت القوات الفرنسية بالدعم في ظل صمود المقاومين ضد الحصار؛ فتوالى قدوم فيالق الجيش الفرنسي على الواحة، حيث دعّم الفيلق رقم 51 القوات المحاصرة بسبعة آلاف جندي، كان عدد كبير منهم يحمل وباء الكوليرا، مما تسبب في نشر الوباء إلى بقية الجنود الفرنسيين، وحتى إلى الجزائريين في المناطق المجاورة[31].

في سنة 1854 دخل وباء الكوليرا مرة أخرى عن طريق الجنود الفرنسيين، حيث وصل أولا إلى مدينة الجزائر، ثم تتبع حركة الجنود الفرنسيين من ثكنة إلى أخرى، ومنها إلى المدن والقرى المجاورة حيث يوجد المدنيين، وبطبيعة الحال يفتك بالجزائريين أكثر، وكذلك الأمر بالنسبة لسنة 1865 حيث وصل الوباء إلى الجزائر من مارسيليا عن طريق فرقة عسكرية استقرت أول الأمر في سيدي فرج، لكن سرعان ما انتشر الوباء في عدة مدن حتى وصل وهران وقسنطينة، وتزامن وباء الكوليرا هذه المرة مع أمراض وأوبئة أخرى مثل التيفوس والحصبة، ثم تلتهم المجاعة، مما تسبب في مئات الآلاف من الضحايا خاصة من الجزائريين، واستمر انتقال الوباء بنفس الطريقة؛ أي من فرنسا خلال القرن 19م، سنوات 1884، 1887، 1893 و1896[32].

وكان يجب الانتظار إلى غاية سنة 1958 حتى يتم الاعتراف من طرف مصالح الصحة العسكرية الفرنسية من خلال دراسة منشورة، أن الأوبئة وخاصة الكوليرا التي وصلت إلى الجزائر خلال القرن 19م، انتقلت من أوروبا؛ وخاصة فرنسا[33].

ربما لا يوجد دليل قاطع على أن الاستعمار الفرنسي نقل الأمراض والأوبئة إلى الجزائر بشكل عمدي، لكنه كما تبين كان السبب في نقلها ونشرها في الجزائر في أغلب المرات خلال القرن 19م، وبالتالي تسبب في الكثير من الضرر للجزائريين، وكان هذا في صالحه بطريقة أو بأخرى.

4- تأثير الأوبئة على النمو الديمغرافي في الجزائر: إن الاستعمار الفرنسي بالجزائر جعل الأحوال الاجتماعية والصحية للشعب الجزائري أسوأ، بسياسته القمعية والاستنزافية؛ فبالإضافة للوفيات والإعاقات نتيجة العنف المباشر المتمثل في العمليات العسكرية، كان للكثير من السياسات الاستعمارية مثل مصادرة الأراضي والممتلكات، وتنظيم الاقتصادات

مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 10- العدد 4 (ديسمبر) 1442هـ/2020م
ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

المحلية لتكون في خدمة المصالح الاستعمارية عواقب أليمة على المجتمع المهزوم، حيث عانت الاقتصادات الريفية والفلاحية، الأمر الذي أدى بالكثير من سكان الريف، إما بالهجرة إلى خارج البلاد، أو إلى المدن للعيش في ظروف غير مستقرة، وهذا ما أدى إلى تدهور الحالة الصحية للأهالي في الجزائر، حيث فتكت بهم أوبئة الجدري والكوليرا والتيفوس وأمراض الزهري، بالإضافة إلى المجاعة[34].

وتشير الوثائق الأرشيفية للمصالح الصحية الاستعمارية أن الأوبئة الأكثر فتكا بالجزائريين خلال القرن 19م هي الكوليرا والتيفوس، على عكس الطاعون الذي تعود أكبر الموجات فتكا له بالجزائر خلال نفس القرن إلى سنتي 1816-1817، وبعدها بدأ بالتراجع، وكان وباء الكوليرا الأكثر انتشارا وتكرارا؛ حيث ضرب الجزائر عشر مرات على الأقل خلال القرن 19م[35].

اختلفت الروايات والإحصائيات حول عدد سكان الجزائر مع نهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي سنة 1830، حيث تشير بعض الدراسات أن عددهم لم يتجاوز المليون نسمة[36]، بينما ذكر حمدان خوجة أن عدد السكان بلغ حينها عشرة ملايين نسمة[37]، إلا أن أكثر الدراسات والإحصائيات تقدر عددهم بحوالي ثلاثة ملايين نسمة[38]، لكن ومنذ دخول الاحتلال الفرنسي لم يتزايد هذا العدد، بل تناقص وبشكل كبير.

في أول إحصاء رسمي للجزائريين من طرف المصالح الإدارية الفرنسية سنة 1861، كان عدد الجزائريين هو 2765139، وبعد خمس سنوات أي سنة 1866، أصبح عددهم 2652072، أي أنهم تناقصوا بأكثر من 113 ألف، وحسب نفس الإحصائيات فإن ثلاثة آلاف منهم هاجروا، وأكثر من 55 ألف منهم قضوا بسبب المجاعة والأمراض خاصة الوبائية، وفي مقدمتها الكوليرا[39]، وأشارت مصادر أخرى أن الأمراض الوبائية، وفي مقدمتها الكوليرا والتيفوس التي صاحبت مجاعة سنة 1867 مات بسببها حوالي 130 ألف جزائري[40].

وتؤكد مصادر أخرى، وفي مقدمتها دراسة قام بها الباحث بيرزت (Burzet) سنة 1869 عن مختلف الكوارث الطبيعية خاصة سنوات 1866، 1867 و1868، أنه على عكس المستوطنين الأوروبيين الذين لم يتضرروا بشكل كبير؛ فإن تأثير وباء الكوليرا على الجزائريين سنة 1867 كان الأكثر فتكا[41]، خاصة وأنه جاء بعد أن فتكت أسراب الجراد بالمحاصيل الزراعية ما تسبب في انتشار المجاعة والفقر بشكل أكبر[42]، وبعد الزلزال الذي ضرب مدينة البليدة وضواحيها في 2 جانفي 1867[43]، حيث مات أفراد بعض القبائل بالكامل بسبب

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

الوباء، وقُدّر عدد الموتى من الجزائريين في ظرف شهرين من الوباء بحوالي 250 ألف[44]؛ إن تفاقم الكوارث الطبيعية خلال سنوات 1866 و1868 من جراد وأوبئة وزلازل وجفاف زاد من شدة الفقر والمجاعة سنة 1868 التي مات من جرائها حوالي 128 ألف جزائري، وهذا زاد في حركة الهجرة نحو البلدان المجاورة والمشرق، وكل هذا أدى بشكل كبير في تناقص حاد في عدد الجزائريين[45].

كما اعترفت السلطات الاستعمارية أنه بحلول سنة 1868 مات حوالي 300 ألف جزائري لأسباب مختلفة حربية منها وصحية، وقد أظهرت الإحصائيات أيضا أن عدد الجزائريين واصل التناقص حيث تراجع بمليون شخص بين 1861 و1871، أي 1.7 مليون، بمعنى أن عدد الجزائريين تراجع بحوالي النصف في غضون أربعين سنة من الاحتلال[46].

همجية الاستعمار لم تقتصر على أعمال الإبادة المباشرة للجزائريين أثناء العمليات الحربية، وغيرها من العمليات الانتقامية ضد القبائل، بل استعملت أو تسببت وبطرق غير مباشرة في إبادة الشعب الجزائري، منها إهمال الناحية الصحية رغم ما تدعيه بعض الكتابات الفرنسية من نفي ذلك، أو بنقل الأمراض والأوبئة إلى الجزائر، والتي لم تكن تعرفها من قبل، ومنها أمراض السل والأمراض التناسلية، وكان يتم نقل هذه الأمراض عن طريق الجنود والسجناء والمرتزقة[47]، كما سبق وأن ذكرنا.

إن الاحتلال الفرنسي بالإضافة إلى أهدافه بإيقاف سيطرة الجزائر العسكرية والاقتصادية على البحر المتوسط، والسيطرة على خيرات الجزائر، وأهداف اقتصادية أخرى، كان حربا صليبية ضد الجزائريين قصد إبادتهم بطرق مختلفة، حيث يذكر الأب بيرزي (PERZI) أنه خلال شهرين فقط توفي أكثر من 250 ألف جزائري دون العمليات الحربية، بل نتيجة الأمراض خاصة الكوليرا والتيفوس والطاعون إضافة إلى المجاعة[48].

5- مساهمة الأوبئة في إضعاف المقاومات الشعبية: الأكيد أن الجزائريين تأثروا عبر العصور بالأوبئة كبقية شعوب العالم، سواء في فترة الاحتلال الفرنسي أو قبل ذلك، لكننا برهنا أن الإدارة الاستعمارية استغلت الأمراض والأوبئة لتحقيق مصالحها، وكان من بين أهم أهدافها إضعاف المقاومات الشعبية، ثم القضاء عليها، وقد ساهمت الأوبئة في ذلك بطريقة غير مباشرة أو مباشرة.

وسياسة الإبادة الجماعية سواء عن طريق العمليات العسكرية أو سياسة الأرض المحروقة، أو باستعمال الأمراض والأوبئة، كانت تهدف إلى إفناء الشعب الجزائري عن آخره

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

أو في مجمله، وإنشاء شعب جديد مكون من المستوطنين الأوروبيين مثلما حدث في أمريكا أو أستراليا، أو على الأقل من أجل إحداث توازن ديمغرافي يضمن كثرة الموالين للاستعمار، ويقلل من الناقمين والثائرين عليه(49).

كان الاستعمار يهدف إلى "إفراغ الجزائر من الجزائريين، إما بالتهجير أو التقتيل أو المجاعة، وبالتفقير والأمراض والأوبئة، لتحقيق الاستيطان واستيلاء الأوروبيين والمعمرين على الأراضي والممتلكات، وبالتالي تنصير الجزائر إلى الأبد"(50).

والأكيد أن تناقص عدد السكان لأسباب مختلفة، وأهمها الأوبئة يؤثر على المقاومات بشكل غير مباشر، حيث أن القبائل الثائرة عادة ما تتأثر في فترة انتشار الأوبئة اجتماعيا واقتصاديا، وهذا يقلل من دعمها لقادة المقاومة ماديا وبشريا، أو أن قادة المقاومات الشعبية هم الذين ينهون مقاومتهم بالاستسلام أو الاختفاء ثم تغيير منطقة المقاومة، بسبب تعرض السكان لسياسة القمع والأرض المحروقة التي تكون في بعض الأحيان مصحوبة بانتشار الأمراض والأوبئة(51).

من جهة أخرى كان من بين أهم سلبيات المقاومات الشعبية؛ ومن أهم أسباب فشلها، أنها كانت مرتبطة بزعمائها، حيث كان استشهادهم وموتهم أو استسلامهم ينهي في الغالب بشكل مباشر مقاومتهم؛ أو يضعفها ويؤثر عليها(52)، وبما أن الأوبئة كانت من أهم أسباب كثرة الوفيات في ذلك الوقت؛ فإنها كانت تهدد حياة قادة المقاومات الشعبية كذلك، وهذا ما حدث أثناء مقاومة أولاد سيد الشيخ، حيث انتهت أربع سنوات من الثورة قادها أحد قادة أولاد سيد الشيخ وهو سي أحمد، وذلك بعد موته في أكتوبر 1868، بعد إصابته بوباء الكوليرا(53).

خاتمة: على مدار التاريخ تحكمت الأمراض والأوبئة في مصير الإنسان على عدة أصعدة، صحيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا؛ وكان لها دور مباشر أو غير مباشر في النزاعات والحروب بين الدول، حيث كان لها تأثير في ترجيح كفة طرف على طرف آخر، وهذا ينطبق على وجود الاحتلال الفرنسي بالجزائر، الذي كان سببا مباشرا وغير مباشر لانتشار الأمراض والأوبئة بين الجزائريين، وزيادة معاناتهم في ظل السياسة الاستعمارية، ومن خلال ما سبق ذكره خلصنا إلى عدة نتائج أهمها:

EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 ردمد
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

- واجه المشروع الاستيطاني الذي هو أساس مشروع احتلال الجزائر خطر الفشل عندما اصطدم بإشكالية التأقلم التي أظهرت حسب بعض المؤرخين تعرض المستوطنين الأوروبيين وأفراد الجيش الفرنسي لعدة أمراض بسبب مناخ وأرض الجزائر.

- شهدت الجزائر عدة فترات من مختلف الأوبئة والأمراض المعدية والمميتة، كان أهمها وباء الكوليرا لأكثر من عشر فترات، بالإضافة إلى أوبئة الطاعون والتيفوس والملاريا، وأمراض الكبد والزحار.

- رغم أنه لا توجد وثائق تؤكد تعمد الإدارة الاستعمارية نقل الأوبئة إلى الجزائر، إلا أن معظم فترات الأوبئة خاصة الكوليرا كانت تأتي من أوروبا، وخاصة فرنسا، وفي غالب الأحيان عن طريق جنود الدعم.

- استفاد الاحتلال الفرنسي كثيرا من انتشار الأمراض والأوبئة في المراحل التي سيطر عليها بين صفوف جنوده ومستوطنيه، حيث أن الأضرار التي تسببت فيها الأمراض والأوبئة بين الجزائريين كانت في صالح الاحتلال، من خلال المساهمة في إبادة الشعب الجزائري، وإجباره على التخلي عن المقاومة المسلحة.

- تباين تأثير الأمراض والأوبئة بين السلبي والإيجابي لحركيتي الاحتلال والمقاومة، وذلك حسب الظروف والمراحل، حيث كانت في بداية الاحتلال في صالح المقاومة، بينما استغلها الاحتلال أكثر لصالحه بعد أن تأقلمت فرقه العسكرية، وتمرست فرقه الطبية مع الأمراض والأوبئة في الجزائر.

الهوامش:

1- ديفيد أرنولد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص7.---2- نفسه، ص14.

3- Yvonne Turin, Affrontements culturels dans l’Algérie coloniale: écoles, médecines, religion, 1830-1880, François Maspero imprimerie, Paris, 1971, pp 306-307.

4- Ibid, p 308.

5- Kamel Kateb, Européens, "indigènes" et juifs en Algérie (1830-1962): représentations et réalités des populations, INED, Algérie, 2001, p60.

6- إيفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة: المدارس والممراسات الطبية والدين 1830-1880، ترجمة محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2005، ص345.---- 7- نفسه، صص345- 346---- 8- إليزابيث لونغينيس وآخرون، الصحة العامة: مهنة الطب وبناء الدولة في الوطن العربي- نظرة تاريخية، مجلة المستقبل العربي، العدد 419، يناير 2014، صص13-14.---9- إيفون تيران، المرجع نفسه، ص346

10- Celine Fallet, Conquête de l'Algérie, Mégard et Cie (Rouen) éditeurs, Paris, 1856, p41.

11- Jacques Léonard, Médecine et colonisation en Algérie au XIXe siècle, Annales de Bretagne et des pays de l'Ouest, Tome 84, numéro 2, 1977, p487.

12- التأقلم (L’Acclimatement): عرَّف أخصائيو النظافة العامة التأقلم بأنه العملية التي يتكيف فيها الكائن الحي مع التغير الحاصل في بيئته أو حين يغير هو بيئته، وهو تغيير عميق يصيب جسم الكائن الحي من جراء البقاء لفترات طويلة في مكان مناخه مختلف عن ذلك الذي

EISSN 2600–6324 ISSN 2170-1636 ردمد
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

اعتاد عليه، والذي له أثر في جعل هذا الكائن الحي يشبه في كثير من النواحي، الكائنات الموجودة في البلد الذي جاء يسكن فيه، ويسمى عادة بالتأقلم الحيوي.

Donatien THIBAUT, Acclimatement et colonization: Algérie et colonies, Just Rouvier Editeur, Paris, 1859, p.1.----13- Donatien THIBAUT, Ibid, p 01- 05 ; Foley Louis-Edmond et V. Martin, De l'acclimatement et de la colonisation en Algérie au point de vue statistique, Dubos frères et Marest Éditeur, Alger, 1848, p 03.

14- Donatien THIBAUT, Op.cit, p02-04.----15- Jean-André-Napoléon PÉRIER, De l'acclimatement en Algérie, Annales d'hygiène publique et de médecine légale, N° 33, 1845, p 301.

16- Jacques Léonard, Op.cit, p487.----17- Donatien THIBAUT, Op.cit, p02-04----18- Prosper de Pietra Santa, La Question Algérienne, acclimatement, hygiène, imprimerie du bureau de la société française d'hygiène, Paris, 1891, pp 05-06.----19- René Ricoux, Contribution à l'étude de l'acclimatement des Français en Algérie, G Masson Librairie, Paris, 1874, p10.----20- Landowski Edward, Sur l'acclimatement en Algérie ,impr. de A. Chaix, Paris, 1878, p02.----21- René Ricoux, Op.cit, p10.----22- Vincent, Martin Antoine et V. Collardot, Le choléra, d'après les neuf épidémies qui ont régné à Alger, depuis 1835 jusqu'en 1865, Librairie de la médecine et de la chirurgie et de la pharmacie militaire VITCOR ROZIER Editeur, Paris, p 147.

23- Ibid, p 140.----24- Burzet, Bellarmin-Vincent (Abbé), Histoire des désastres de l'Algérie 1866-1867-1868 (sauterelles, tremblement de terre, choléra, famine), Imprimerie centrale Algérienne, Alger, 1869, p65.

25- شهرزاد شلبي، ثورة واحة العمري وعلاقتها بالمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في القرن التاسع عشر، ماجستير في تاريخ الجزائر المعاصر: تخصص تاريخ الأوراس، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008-2009، ص124.----26- بعلي حفناوي، صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2018، ص154؛ نقلا عن: فريدريك إنجلز، الجزائر، ضمن الماركسية والجزائر، ص.21

27- Vincent, Martin Antoine et V. Collardot, Op.cit, p10.----28- kamel kateb, Op.cit, p61.

29- Vincent, Martin Antoine et V. Collardot, Op.cit, p10- 19.----30- Ibid, p 25-28.

31- Ch. BOURSEUL, l'insurrection des ZIBANS : ZAATCHA, Dumaine Librairie, Paris, 1851, p p 28-29.----32- kamel kateb, Op.cit, p63.----33Ibid, p64.

34- إليزابيث لونغينيس وآخرون، المرجع السابق، ص10-13.

35- kamel kateb, Op.cit, p61.

36- ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص39.---37- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تحقيق محمد العربي الزبيري، الجزائر، 2006، ص13.

38- André Nouchi, Notes sur la médcine et la démographie en Algérie de 1840 à 1880, annals de démographie historique, n°41, 1992, p531.----39- Session législative de 1870, Cahiers algériens, Impr. de Duclaux, Alger, 1870, p 69-70.----40- Alfred RAMBAUD, l'insurrection Algérienne de 1871 : étude sociale te réligieuse, Berger Levrault Librairie éditeurs, Paris, 1891, p15.

41- Burzet, Bellarmin-Vincent, Op.cit, p65.----42- Ibid, p 17-22.----43- Ibid, p 14-42.----44- Ibid, p 65.----45- Ibid, p 71- 83.----46- Session législative de 1870, Op.cit, p 69-70.

47- بركات محمد مراد، فلسفة الإمام ابن باديس، في الإصلاح والتجديد، الصدر لخدمات الطباعة، 1992، ص23.---48- العربي منور، تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 185.---49- رامي سيدي محمد، المقاومات الشعبية في الجزائر وتونس (1830-1916)- دراسة تاريخية مقارنة، أطرحة دكتوراه تخصص تاريخ الحركات الوطنية المغاربية، جامعة تلمسان، 2017-2018، ص247.---50- العربي منور، المرجع السابق، ص 229.---51- رامي سيدي محمد، المرجع نفسه، ص254.---52- نفسه، ص268.

53- Louis RINN, Nos Frontieres SAHARIENNES, Adolphe Jourdan Librairie Editeur, Alger, 1886, p 39.